الفصل الرابع

علماء الحديث

أولا : علماء غريب الحديث

تمهيد :

كثر المؤلفون في علم «غريب الحديث» يشرحون ألفاظه ، ويوضحون معانيه ويؤكدون أقوالهم بما ورد من صريح اللغة ، بيد أن من أولى البلاغة عناية منهم الزمخشرى ، ومجد الدين بن الأثير ، الأول في كتابه «الفائق» والثانى في «كتابه: «النهاية في غريب الحديث والأثر» ونقدم عنهما هذه الدراسة الموجزة . .

أ- الزمخشرى في «الفائق»

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى الملقب بجار الله ، وبفخر خوارزم ولد بزمخشر ، يوم الأربعاء ، السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربعمائة ، وتوفى ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، وقد ترك تصانيف بديعة أجلها الكشاف ، والفائق في غريب الحديث ، وأساس البلاغة ، وله تآليف في النحو والأصول والمواعظ ، والفرائض .[1]

منهجه في كتابه الفائق :

قال مصححاه : الأستاذان : على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم «التزم الزمخشرى أن يورد الكلمات الغريبة من الأحاديث أو الآثار التي لم تذكر في المادة بعدها ، ويدل على مواضعها من أبواب الكتاب ، فكأنه بما

---

(١) انظر : تاريخ علوم البلاغة ، المراغي ص ١٠٢-١٠٥

صنع مكملاً للترتيب ، وميسرا للانتفاع ، وقد رتبه على حروف المعجم وكل باب رتبه على الحرف الأول مع الثاني ، فهو يذكر الهمزة مع الباء ، ثم مع التاء وهكذا [1] والواقع أننا دهشنا حين رأينا الكتاب فقد توقعنا منه ، وهو فارس من فرسان البلاغة أن يأتي منها بكل عجيب لكنه التزم منهجًا يشرح غريب الألفاظ ، التي كثيرًا ما يستشهد عليها من كلام العرب ، ويعالجها لغويا بذكر اشتقاقاتها ، ولا يذكر البلاغة إلا في الفينة بعد الفينة ، وعندئذ قد يذكر اللون البلاغي شارحًا محللاً كما في الحديث عن رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبد خيرا عسله ، قيل يا رسول الله : وما عسله ؟ قال يفتتح الله له عملاً صالحًا بين يدى موته ، حتى يرضى عنه من حوله».

قال : هو من عسل الطعام يعسله ويعسله : إذا جعل فيه العسل ، كأنه شبه ما رزقه الله من العمل الصالح ، الذي طاب به ذكره بين قومه بالعسل الذي في الطعام فيحلولى به ويطيب[2].

وكما في حديث أم زرع فقال : كنت عن ارتفاع بيته في الحسب «برفع عماده» وعن طول قامته : «بطول نجاده» وعن إكثاره القرى «بعظيم رماده» وإنما قرب بيته من النادي ، ليعلم الناس بمكانه فينتابوه[3].

وكما في الحديث « إياكم وعطرة الناس فإنها تدفن الغرة ، وتظهر العرة» قال : أصل الغرة البياض في جبهة الفرس ، ثم استعيرت فقيل في أكرم كل شيء غرته ، كقولهم : غرة القوم لسيدهم ، والعرة : القذر فاستعيرت للعيب ، والدنس في الأخلاق وغيرها ، فقالوا : فلان عرة من العرر ، والمعنى : أنهم إذا نالهم منك مكروه كتموا محاسنك ، ومناقبك وأبدوا مساويك ومثالبك[4].

---

(١) الفائق في غريب الحديث ، للزمخشرى : ط أولى القاهرة ١٩٤٥ مطبعة عيسى الحلبى : ص ج من المقدمة

(٢) المرجع السابق ٢/٧٤

(٣) المرجع السابق ٢/١٠٥

(٤) المرجع السابق ٢/١١٠

ونلاحظ أنه يسمي الألوان البلاغية بمصطلحاتها الفنية التي أسهم هو في إقرارها في تفسيره «الكشاف»

وقد يشرح اللفظة دون إشارة إلى ما في الحديث من بيان كما في الحديث عن رسول الله ﷺ «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» قال فمن ربطها عدة في سبيل الله فإن شبعها وجوعها وريها وظمأها ، وأرواثها وأموالها فلاح في موازينه يوم القيامة[1]

صفوة القول : أنه لم يتخذ موقفًا تجاه البلاغة النبوية وما يحمد له هذه القطرات والشذرات التي كانت تعن له عرضًا وكيفما اتفق في بيان القيم البلاغية وتسميتها بأسمائها الاصطلاحية دون اضطراب أو عوج ثم يمضي إلى غرضه من الكتاب .

ب ـ ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث والأثر» :

هو الإمام : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير (٥٤٤-٦٠٦ هـ) .

منهجه :

لم يلتزم ذكر الحديث بتمامه ، بل يذكر العبارة التامة المشتملة على اللفظة الغريبة ، وقد تستوعب هذه العبارة الحديث إذا كان قصيراً كقول الرسول ﷺ «الناس كإبل مائة ، لا تجد فيها راحلة» ، قال ، يعني أن المرضي المنتخب من الناس في عزه وجوده كالنجيب من الإبل القوي على الأحمال والأسفار الذي لا يوجد في كثير من الإبل فقال الأزهري «الذي عندي فيه أن الله ذم الدنيا ، وحذر العباد سوء مغبتها ، وضرب لهم فيها الأمثال ، ليعتبروا ويحذروا ، كقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (يونس:٢٤)..الآية. وما أشبهها من الآي ، وكان النبي ﷺ يحذرهم ما حذرهم الله ، ويزيدهم فيها فرغب أصحابه بعده ، وتنافسوا عليها ، حتى كان الزهد في النادر القليل منهم

---

(١) الفائق في غريب الحديث للزمخشري : ١٤٥/٢

فقال : « تجدون الناس بعدى كإبل مائة ، ليس فيها راحلة » أي أن الكامل في الزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة قليل ، كقلة الراحلة من الإبل ، والراحلة : هي البعير القوي في الأسفار والأحمال ، والنجيب : التام الخلق والحسن المظهر ، ويقع على الذكر والأنثى والهاء فيه للمبالغة[1].

ونأخذ منه : سلاسة الأسلوب في معالجة النص البلاغي ، والاسترسال الأدبي ، والإشارة إلى اللون البلاغي وبيان أثره ، مع الاستئناس بالمأثور والنقل عن السابقين . .

قد يذكر اللون البلاغي أو يذكر أثره في المعنى ولا يسميه : كما في الحديث « القرآن مأدبة الله في الأرض » شبه القرآن بصنيع صنعه الله للناس لهم فيه خير ومنافع[2].

وفي حديث أنس أنه ﷺ قال له : ياذا الأذنين : قال : قيل معناه : الحض على حسن الاستماع والوعي لا السمع بحاسة الأذن ، ومن خلق الله أذنين ، فأعقل الاستماع ولم يحسن الوعي لم يعذر ، وقيل : إن هذا القول من جملة مرحه ﷺ ولطيف أخلاقه كما قال للمرأة من زوجها « ذاك الذي في عينه بياض »[3] وهذا الأسلوب السمح ، والاهتمام بذكر الأقوال في معنى الحديث . . مع البسط في الشرح مسلك لعله تأثر به شراح الحديث حتى في إشارتهم إلى النوع البلاغي باقتضاب ، ويؤكد ذلك هذا الحديث بتعليقه « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » قال : ويقال : استحى يستحي واستحيا يستحي والأول أعلى وأكثر ، وله تأويلان : أحدهما ظاهر وهو المشهور أي : إذا لم تستح من العيب ولم تخف العار مما تفعله ، فافعل ما تحدثك به نفسك من أغراضها حسنًا كان أو قبيحا ولفظه أمر ، ومعناه : توبيخ وتهديد ، وفيه إشعار بأن الذي يردع الإنسان عن مواقعة السوء هو الحياء .

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير تحقيق الأستاذين طاهر الزاوى ، ومحمود محمد الطناحى ط أولى عيسى الحلبى بالقاهرة ١٦/١ ، ١٣٢٨ هـ ١٩٦٣م

(٢) المرجع السابق ٣٠/١ (٣) المرجع السابق ٣٤/١

والثاني أن يحمل الأمر على بابه يقول : إذا كنت في فعلك آمنًا أن تستحي منه ، فجريك فيه على سن الصواب وليس من الأفعال ، التي يستحيا منها فاصنع منها ماشئت[1]

ولعله بذلك ـ وهو فضل عنايته بالحديث ـ يمتاز على الزمخشري تحليلاً ، وبيانًا أدبيًا لأثر الألوان البلاغية ، وأسرارها ، واستقصاء للأقوال المختلفة في معنى الأثر ، مع الإشارة أحيانًا إلى تسمية اللون أو بيان أسراره في التعابير ، وفعله هذا ـ قد لا يحمد عليه في عالم اللغويات ـ ولكنه جد محمود في دنيا الأدب والبلاغة ، على أن هذه اللفتات كانت قليلة جدًا في كتابه الكبير ، وإن كانت مفيدة .

ثانيًا : شراح الحديث

تمهيد :

اهتم شراح الحديث بتفسير مفرداته ، وشرح معانيه وأغراضه ، وبيان أحكامه وإرشاداته ، وتنوعوا في ذلك حسب ميولهم وثقافاتهم ، وكانت البلاغة النبوية تأتي في ثنايا كلامهم عرضا غير مقصودة أحيانًا وبصورة عفوية غير أننا وجدنا ـ منهم ـ من عني بالبلاغة عناية خاصة تكاد تدخل ضمن منهجه في تناول الحديث ، وإبراز من وضح لديه هذا الاتجاه الإمام بدر الدين العيني ، والعلامة محمد بن علان الصديقي رضي الله عنهما .

أولا : الإمام بدر الدين العيني :

التعريف به : هو الإمام : بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ في كتابه «عمدة القاري شرح صحيح البخاري»

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٤٧٠ ، ٤٧١

منهجه العام :

يمكننا القول ـ دون مبالغة ـ إن هذا الكتاب موسوعة علمية هامة ذلك أن الرجل متعدد الجوانب بالغ التعمق فيها يذكر الحديث ويوضح تعلقه بما ساقه البخاري من قرآن صدر الباب ، ثم يترجم الحديث ببيان رجاله ، وضبطهم وأنسابهم وفوائد تتعلق بهم ، وفي نوع الحديث ، ولطائف إسناده ، وتعدده في الصحيح ، وبيان من أخرجه غيره ، واختلاف لفظه ، ثم بيان اللغة والإعراب ، والمعاني والبيان ، والبديع والأسئلة والأجوبة ، والسبب والمورد ، وعلى هذا فحديث واحد مثلا ، « إنما الأعمال بالنيات» استغرق عشرين صفحة من القطع الكبير .

منهجه البلاغي :

(١) انتهاز الفرصة ـ أحيانا ـ لوجود لون بلاغي ليوضحه أولا ، وشرح اللون ذاته معرفًا ، ومقسمًا له ، بالتفصيل ذاكرًا أوجهه ، والخلافات التي نشبت حوله مجرد سرد دون ترجيح ، وقد يدخل إلى الخلافات الدقيقة والمجازات البلاغية التي اشتهرت عند المتأخرين ، وقد يسرف فتلمح «شروح التلخيص» بمنطقها الحاد .

(٢) عدم استيعاب كل ما يوجد من ألوان بلاغية ، وإنما ينبه على الأشهر وقد لا يهتم كثيرًا بأسرار اللون البلاغي ، مع توجيه العناية إلى علم البيان أما المعاني والبديع فلم يلقيا منه ـ دومًا ـ ما لقيه البيان وإن كان القصر قد نال منه هذه العناية . .

(٣) له لمحات خاصة في أسرار التراكيب ، ومقتضى النظم ، وهذا ما امتاز به على متأخرى البلاغيين وقد خصص لذلك ما سماه «الأسئلة والأجوبة» سواء كان منقولا أم عن اجتهاده هو .

(٤) هو ـ لاشك ـ ضليع عن علوم الحديث والفقه ، وأصوله ، أما البلاغة فقد كان أحيانًا يوفق بأسلوب سمح يعالج البلاغة وكأنه نسي ما عداها ،

وغالبا ما تستعجم الألفاظ ، وتمتزج بأمشاج من أصول الفقه ، والمنطق فتتحجر تحجر العلوم الجامدة ، ونورد ما يؤكد ما سبق :

الحديث الأول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» في بيان المعاني قال « إنما : للحصر ، وهو إثبات الحكم للمذكور ، ونفيه عما عداه وقال أهل المعاني : ومن طرق القصر إنما والقصر تخصيص أحد الأمرين بالآخر ، وحصره فيه ، وإنما تفيد إنما معنى القصر لتضمنه معنى ما إلا من وجوه ثلاثة : الأول قول المفسرين في قوله تعالى : « إنما حرم عليكم الميتة» بالنصب ، معناه : ما حرم عليكم إلا الميتة . . . يكمل بقية الأوجه الثلاثة المعلومة ثم يذكر أدق الخلافات قائلاً «وهذا الذي ذكرناه هو قول المحققين ، ثم اختلفوا فقيل أفادته له بالمنطوق وقيل بالمفهوم ، وقال بعض الأصوليين أنها لا تفيد التوكيد ، ونقل صاحب المفتاح عن أبي عيسى الربعى : أنه لما كانت كلمة « إن» لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه ، ثم اتصلت بها ما المؤكدة التي تزاد للتأكيد كما في « حينما» ـ لا النافية ـ على ما يظن من لا وقوف له في علم النحو ـ ضاعفت تأكيدها ، فناسب أن يضمن معنى القصر ، أي معنى ما ، وإلا ، لأن القصر ليس إلا لتأكيد الحكم على تأكيد[1] ويسير على هذا النمط ـ بلا ملل ـ في اعتراض ، ودفعه ـ شوطا طويلا ، وعلى نمطه يوضح القصر التالي « وإنما لكل امرئ ما نوى» وحين يأتي إلى البيان في قوله « إلى دنيا يصيبها» يقول « تشبيه» وهو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى ، أو في وصف من أوصاف أحدهما ، كالشجاعة في الأسد والنور في الشمس ، وأركانه أربعة : المشبه ، والمشبه به ، وأداة التشبيه ، ووجهه ، وقد ذكرنا أن المراد بالإصابة الحصول ، فالتقدير « فمن كانت هجرته إلى تحصيل

---

(١) انظر : عمدة القارى شرح صحيح البخارى ، للعينى ١/٢٥ ، ٢٦

الدنيا فهجرته حاصلة لأجل الدنيا ، غير مفيدة له في الآخرة فكأنه شبه تحصيل الدنيا بإصابة الغرض بالسهم ، بجامع حصول المقصود وفي بيان البديع يقول عن الحديث فيه من أقسامه : التقسيم بعد الجمع والتفصيل بعد الجملة ، وهو قوله «فمن كانت هجرته إلى دنيا . . . إلخ ، لاسيما في الرواية التي هي ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها . . . إلخ»[1]

وعلى هذا النمط يعالج الاستعارة وأنواعها وقرينتها واحتمال تعددها دون ترجيح في حديث الرسول ﷺ «بني الإسلام على خمس»[2]

والإمام العيني ـ رحمه الله ـ ابن عصره الذي شغل أغلب البلاغيين فيه بالتشقيق والمنطق وتحكم الجدل والنظرة العقلية في المعارف ، وقد تأثر بعلماء القرن التاسع أمثال «السيد الشريف الجرجاني ٨٢٦ هـ وعز الدين ابن جماعة ٨٢٠ هـ وقبلهم السبكي ٧٧٣ هـ والتفتازاني ٧٩٢ هـ وغيرهم من عمد المدرسة السكاكية ،لكنه ـ والحق يقال قد يتأثر من ناحية أخرى بالأسلوب النبوي فله لمحات بلاغية واعية في الحديث «فهجرته إلى الله ورسوله» : لم يقل في الجزاء فهجرته إليهما «بأن ذلك من آدابه عليه الصلاة والسلام في تعظيم اسم الله عز وجل أن لا يجمع مع ضمير غيره ، وأجاب ، بأن الدنيا نكرة وهي لا تعم في الإثبات ، أو زيادة تخدير فيكون من ذكر الخاص بعد العام»[3] وفي الحديث «آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار» ويقول «المطابقة تقتضي أن يقابل الإيمان بالكفر ، لكن البحث في الذين ظاهرهم الإيمان وهذا البيان ما يتميز به المؤمن الظاهري عن المؤمن الحقيقي فلو قيل «آية الكفر بغضهم» لا يصح إذ هو ليس بكافر ظاهراً»[4] وقد استعان بسبب ورود الحديث لفهم المراد وذلك هام في فهم الأساليب .

---

(١) انظر : عمدة القاري ١/٢٥-٢٧
(٢) المرجع السابق ١/١١٢-٢٢٠
(٣) المرجع السابق ١/١٨
(٤) المرجع السابق ١/١٥٢

والعينى أولا وأخيرا موسوعة علمية ضخمة في فروع شتى من المعرفة ، وكتابه مرجع فذ على رأيه ومنهجه ، وفيه محاولة للكشف عن أسرار البلاغة النبوية تحكمت فيها ظروف بيئته ، وثقافته ، عليه رحمة الله . .

ثانيا : العلامة ابن علان الصديقي الشافعي

هو العلامة محمد بن علان الصديقي الشافعي المكي المتوفى ١٠٥٧ هـ ، في كتابه «دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين» للإمام أبي زكريا يحيى ابن محيي الدين النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ .

منهجه العام :

الشرح الوافي لمفردات الحديث ، وبيان معانيه ، وذكر إعرابه ، ودلالة أدواته وإظهار ما فيه من بلاغة وبيان ، كل ذلك ممتزج بعضه ببعض ، فهو يذكر لفظة الحديث ويتبعها بما يتعلق بها من لغة وأصول ونحو وبلاغة ومعنى . .

منهجه البلاغي :

يعتبر كتابه ـ بحق ـ أوفى الكتب الشارحة للحديث بحق البلاغة ، وأبرعها في كشف أسرارها ، وأجمعها في التنبيه على ألوانها ، ويمكن اعتباره خطوة في إثراء البلاغة النبوية دراسة وبحثا ، فهو معني بها ، حريص عليها بأسلوب يتفاوت سهولة وصعوبة ـ وأدبا ومنطقا .

سمات هذا المنهج :

(١) الاهتمام بعلم المعاني ، خاصة الفصل ، والوصل ، والاستئناف ، والإيجاز ، والقصر ، ففي الحديث ، « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ مانوى» يقول : إنما هي لتقوية الحكم المذكور بعدها اتفاقا ، ولذا وجب كونه معلوما للمخاطب أو في منزلته ، ولإفادة الحصر وضعًا حقيقة على الأصح عند جمهور الأصوليين خلافا لجمهور النحاة ، والحصر وبمعناه القصر إثبات الحكم لما بعدها ، ونفيه عما عداه ، لورودها لذلك في كلامهم غالبا ، والأصل الحقيقة ، وجواز غلبة المجاز خلاف الأصل

والقصر في الخبر من قصر المسند إليه ، ويعبر عنه بالموصوف ، على المسند ، ويعبر عنه بصفته ، وهو إضافي لخروج بعض الأعمال عن اعتبار النية فيه[1]

ونلاحظ هنا الدقة وعدم الخروج عن دائرة الأسلوب النبوي ، والتعرض لذكر الخلافات بين الأصوليين والنحاة ، دون الإلماع للبلاغيين أصحاب البحث الأصيل ، وفي الحديث « إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض» قال : قوله حبسهم المرض : استئناف بياني ، جوابا عن السؤال المقدر من حصول مثل ثواب المجاهد لهم مع قعودهم وقد جاء السؤال مصرحا به في رواية أبي داود ، قالوا يا رسول الله : وكيف يكونون معنا ، وهم بالمدينة قال : ﷺ « حبسهم العذر »[2]

جوامع الكلم :

اهتم بها كثيرا ، تارة ينقل كلام السابقين ، وأخرى ينفعل هو بما بها من بيان وفصاحة ، ففي الحديث « اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» قال : أي حاصلة بها ، قال : القرطبي : وهذا من الكلام النفيس البديع الذي جمع ضروب البلاغة من جزالة اللفظ ، وعذوبته وحسن استعارته وشمول المعاني الكثيرة مع الألفاظ المقبولة الوجيزة بحيث تعجز الفصحاء اللسن البلغاء عن إيراد مثله وأن يأتوا بنظيره وشكله ، فإنه استفيد ـ مع وجازته ـ الحض على الجهاد والإخبار بالثواب عليه ، والحض على مقاربة العدو ، واستعمال السيوف والاعتماد عليها ، واجتماع المقاتلين حين الزحف ، بعضهم ببعض ، حتى تكون سيوفهم بعضها يقع على العدو ويرتفع عليهم ، وحتى كأن السيوف أظلت الضاربين بها ويعني أن الضارب بالسيف في سبيل الله يدخل الجنة بذلك[3].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، لابن علان الشافعى ١/٣٨ ، ٣٩

(٢) المرجع السابق ١/٥٣ ، ٥٤

(٣) المرجع السابق ١/٢٤٧

وفي الحديث «أن تعبد الله كأنك تراه» قال أصله كأنك تراه ويراك فحذف الثاني لدلالة الأول عليه ، وهذا من جوامع كلمه ﷺ لأنه جمع مع وجازته بيان مراقبة العبد ربه ، في إتمام الخضوع والخشوع ـ وغيرهما في جميع الأحوال ، والإخلاص له في جميع الأعمال ، والحث عليهما ، مع بيان سببهما الحامل عليهما ، والثاني «فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك» من لا ينتهي إلى تلك الحالة ، لكن يغلب عليه ، أن الحق مطلع عليه ومشاهد له وقد بينه ﷺ بقوله «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذا من جوامع الكلم أيضا ، أي فإن لم تكن تراه فلا تغفل فإنه يراك ، ثم هذان الحالان هما ثمرتا معرفة الله تعالى وخشيته[1].

والحق أنه وفق هنا في تعمق الأساليب وبيان أسرار البلاغة النبوية مع بيان اللون البلاغي الذي احتواه النظم وأسهم في براعة الكلام واكتنازه بأسلوب تحليلي منسق فيه يسر وبساطة .

البيان :

وهو يكثر من النقل فيه ، ويسمي الألوان البيانية ـ ويشير إلى علاقات المجاز المرسل أحيانا ونلتقط هذه النماذج الدالة :

في حديث أنس عن رسول الله ﷺ «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يسقط على بعيره ، وقد أضله بأرض فلاة» يقول أفرح : أشد فرحا ، والمراد هنا منه ـ لاستحالة قيام حقيقية ـ التي هي اهتزاز ، وطرب يجده الإنسان من نفسه عند ظفره بعرض يستكمل به نقصانه ، أو يسد به خلته أي حاجته أو يدفع به عن نفسه ضررا أو نقصا ـ بالباري سبحانه ـ غايته من الرضى لأن السرور سيقربه من الرضى ، أو تشبيه مركب عقلي من غير نظر إلى مفردات التركيب بل تؤخذ الزبدة من المجموع ، فتكون غايته ، ونهايته ، وفائدته إبرازه في صورة التشبيه ، وتقرير المعنى في ذهن السامع ، أو تمثيلي بأن يتوهم للمشبه الحالات التي للمشبه به وينتزع له منها ما يناسبه ، فالحاصل أن المراد بقوله أفرح : أرضى[2].

---

(١) دليل الفالحين ١/٢٧٥ (٢) المرجع السابق ١/٩٦

ونأخذ عليه أنه ميز بين المركب العقلي ، والتمثيلي وهو بعضه دلالة على عدم التمكن من التشبيه البلاغي وقد سبق أن العلوي خرج أمثال هذه الأحاديث المشكلة على التخييل التصويري تنزيهًا وتفننًا .

وقد يشير إلى علاقة المجاز المرسل كما في الحديث «أن رسول الله ﷺ رأى خاتما من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه ، وقال : يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده» قال : فهنا مجازان مرسلان ثم بين علاقة الأول بقوله «يئول لابسه ـ لعظيم إثمه ـ إلى أن يجعل النار في محله» والثانى ، في يده ، أي في أصبعه مجاز مرسل من إطلاق الكل وإرادة الجزء[1].

وقد نبه إلى المجاز العقلي كما في الحديث «أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم» قال «وإسناد الإهلاك إليها مجاز عقلي من باب الإسناد إلى السبب ، إذ التنافس فيها سبب قد يجر لفساد الدين ، وهلاكه»[2]

البديع : السجع

نبه على السجع في الحديث «اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم» واشترط مثل غيره عدم تكلفه كما جاء هنا مطبوعا، [3] لكنه لم يلتزم التنبيه عليه دائمًا في الأحاديث .

التجريد :

قال في الحديث «وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور» قال : قوله فيه الهدى والنور تجريد كقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ «والتجريد: أن ينتزع من متصف بصفة آخر مثله لأجل المبالغة في كمالها فيه»[4] وتعريفه التجريد موجز للغاية بالقياس إلى المشهور[5].

---

(١) دليل الفالحين ٣٨٣/٩١
(٢) المرجع السابق ١٣٤/٤
(٣) المرجع السابق ٣٤٨/١
(٤) المرجع السابق ٢٦٤،٣٦٣/٣
(٥) تاريخ علوم البلاغة ، المراغى ص ٣٤٦

القلب :

أشار إليه في الحديث «حتى يستقل الظل بالرمح» في تحديد الوقت لصلاة الظهر قال «وهذا من باب القلب كطينت الطين بالقصر ، وعرضت الناقة على الحوض أي حتى يستقل الرمح بالظل أي يبلغ ظله أو في غاية النقص فحسن القلب من المبالغة المولدة منه ، لإفادة كون الرمح صار بمنزلة الظل في القلة والظل صار بمنزل الرمح في عدم وجود شيء في الأرض إلا بمقدار مركزه»[1]

ومع ما قدمنا من أمثلة بديعية نقول إنه لم يول البديع عناية كافية وإنما كان يشير إليه في الأقل من الأحيان ، وما نسجله من هذا الأقل .

أسرار التعابير :

كانت له لمحات فنية ذكية كقوله في الحديث : «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا . . الحديث» و «في التعبير بالغيث دون المطر لطيفة» «إذ الغيث يحتاج إليه الناس عند قلة المياة»[2]

وقوله في الحديث «عضوا عليها بالنواجذ» لأن النواجذ محددة فإذا عضت على شيء نشبت فيه فلا يتخلص[3].

وفي الحديث «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» قال : «لوهنا بمعنى إن ، إذ المعنى على الاستقبال ولكنه العدول إن اجتماعهم على الإمداد من المستحيلات ، بخلاف اجتماعهم على الأذى فإنه ممكن ، وفي قول الرسول «وإن اجتمعوا» عبر بها بدل لو تفننًا في التعبير[4].

خلاصة القول : إن الصديقي كان من منهجه الاهتمام بالبلاغة النبوية ومحاولة تحليلها ، على قدر طاقته ، وعلمه في البلاغة ، ولما لم يكن متعمقا

---

(١) دليل الفالحين ٨٣/٤ (٢) المرجع السابق ٢١٢/٢

(٣) المرجع السابق ٢٠٣/٢ (٤) المرجع السابق ٢٨٨/١

في علوم البلاغة فقد كان كثير النقل ، كما كان يخطئه التوفيق أحيانًا ، وننبه إلى اهتمامه بذكر أقوال عدة ، واحتمالات قد تختلف في العبارة الواحدة تأثرًا من اتجاه عصره ، ويهمنا أيضا أن نسجل ما أسهم به علماء الحديث من إثراء البحث البلاغي في بيان النبوة حسبما أوتوا من علم وموهبة وطاقة فاندفعوا يبينون أسرارها في شروحهم ، وهو جهد يشكره ويقدره العالمون . .

* * *